# هل الشريعة الإسلامية غير مفهومة ؟ وغير مناسبة للعصر ؟

## هل الشريعة الإسلامية غير مفهومة ؟ وغير مناسبة للعصر ؟

نشرتِ يا بنتي يوم ٤/ ١٢ / ٢٠١٦ " لا يضحكني شيء أكثر من مقولة يرددها الملايين " احنا لو فهمنا الدين صح وطبقناه صح حياتنا هتبقى جميلة خالص" ... الذي لا نستطيع فهمه صح خلال ١٤٠٠ سنة يبقى حاجة غير قابلة للفهم ، والذي لا نستطيع تطبيقه صح خلال ١٤٠٠ سنة يبقى حاجة غير قابلة للتطبيق ... حاجة مش عايزة ذكاوة ... مشكلة أغلب المتدينين إنهم مش عايزين يفهموا إن الدين مجرد شعور بالإيمان بخالق الكون ومصدقين كلام المشايخ والكهنة إن الدين نظام سياسي واقتصادي واجتماعي عشان كدة بقالهم ١٤٠٠ أو ٢٠٠٠ سنة بيحاولوا يدخلوا الفيل من خرم الباب وبيفشلوا ، ولسة بيحاولوا .. ومضيعين عمر شعوبنا في هذه المحاولة الخرقاء لحد ما القطر سابنا وبقينا حثالة الأمم. "

وقد أجبنا بحمد الله عن قولك " إن الدين مجرد شعور بالإيمان بخالق الكون " ، والآن نحاول أن نجيب عن قولك : " الذي لا نستطيع فهمه صح خلال ١٤٠٠ سنة يبقى حاجة غير قابلة للفهم " .

### معنى الشريعة

الشريعة هي النظام الذي ينبثق عن العقيدة ، ويجعلها صورة واقعية متمثلة في حياة البشر فتبين كيفية عمل المُكَلَّف في العبادات والمعاملات والأخلاق وسائر شئون حياته .

لقد بعث الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق ، لينشره في العالمين .

﴿ هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهدى وَدِينِ الحق لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدين كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ المشركون ﴾ [ الفتح : ٢٨ ] .

والمراد بالهدى : القرآن الكريم المشتمل على الإرشادات السامية ، والتوجيهات القويمة ، والأخبار الصادقة ، والتشريعات الحكيمة .

ومحتويات القرآن الكريم لا تتجلَّى في : التوحيد ومتعلقات النبوة ، وقصص الأنبياء والأمم السابقة والوعد والوعيد فحسب إنما اشتملت على الشرائع التي تُمَكِّن المُكَلَّف من أن يعرف كيف يعبد ربه ويعمر كونه ويزكي نفسه .

﴿مَّا فَرَّطْنَا في الكتاب مِن شيء﴾ [ الأنعام : ٣٨ ] .

أي : ما قصرَّنا في القرآن الكريم من شيء يحتاج إليه المُكَلَّف من أمر الدين مفصلاً أو مجملاً .

وقوله تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكتاب تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [ النحل : ٨٩ ] .

يقول ابن مسعود: إن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق ، وعلم ما سيأتي ، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم.

والقرآن الكريم هو المصدر التشريعي الوحيد في الشريعة الإسلامية يقول سبحانه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [ الأنعام:٥٧ ] .

فالله تعالى هو المشرع الحقيقي ولا مشرع غيره ، ولقد أجمع المسلمون على اختلاف نزعاتهم وآرائهم ومذاهبهم على أن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر الشريعة، بل هو المصدر الوحيد فيها، وما عداه من المصادر المعتبرة إنما هو تابع للقرآن أو فرع عنه، لثبوت حجيته بالقرآن نفسه، وعلى ذلك يكون القرآن هو المصدر الأصلي لهذه الشريعة، وما عداه من المصادر المتفق عليها والمختلف فيها إنما هي مصادر تبعية ، لأنها في ثبوت حجيتها محتاجة للقرآن الكريم ومتوقفة عليه .

## العقل والتشريع

أما في مجال التشريع فقد ترك الحق تبارك وتعالى للعقل أن يصول ويجول في فهم النصوص فيفرع منها على الأصول وقيس على الفروع ويستنبط الأحكام ،

ويكيف الوقائع ، ويراعي القواعد في جلب المصالح ، ودرء المفاسد ، ورفع الحرج، وتحقيق اليسر ، وتقدير الضرورات بقدرها، واعتبار العرف، ورعاية ظروف الزمان والمكان . ولا عجب بعد ذلك أن تعددت المذاهب ، وتنوعت الأقوال ، وخلف لنا العقل الإسلامي في ضوء الوحي ثروة فقهية طائلة لها مكانها الرفيع في تراث الفقه العالمي .

## أنواع أحكام القرآن الكريم

أنواع الأحكام التي جاء بها القرآن الكريم ثلاثة :

**الأول** : أحكام اعتقادية : تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وقد سبق الحديث عنها في الفصل السابق .

**والثاني :** أحكام خلقية : تتعلق بما يجب على المُكَلَّف أن يتحلَّى به من الفضائل وأن يتخلَّى عنه من الرذائل .

**والثالث :** أحكام عملية، تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات. وهذا النوع الثالث هو فقه القرآن، وهو المقصود الوصول إليه بعلم أصول الفقه .

والأحكام العمليَّة في القرآن تنتظم نوعين :

١- أحكام العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج ونذر ويمين ونحوها من العبادات التي يقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه .

٢- أحكام المعاملات من عقود وتصرفات وعقوبات وجنايات وغيرها مما عدا العبادات، وما يقصد بها تنظيم علاقة المُكَلَّفين بعضهم ببعض، وسواء أكانوا أفراداً أم أُمماً أم جماعات . (١)

(١) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " مكتبة الدعوة الإسلامية ص ٣٢

## القرآن الكريم قطعي الثبوت

القرآن الكريم حُجَّة على الناس وأن أحكامه قانون واجب عليهم اتِّباعه لأنه من عند الله وأنه نقل إليهم عن الله بطريق قطعي الثبوت لا ريب في صحته ؛ فمن المتواتر أن رسول الله ﷺ كان إذا نزلت عليه آية دعا بالكاتب فأثبتها وكانوا يكتبونها في العسب والحجارة وعظام الكتف ، ولقد تمَّت كتابة القرآن كله في عهد الرسول ﷺ ، ثم جَمَع القرآن بعده في المصحف أبو بكر ، ثم نسخ من ذلك عثمان بن عفان وبقية الصحابة وكل ذلك لحفظ القرآن لئلا يشذ منه شيء . ولقد أسند الخلفاء الراشدون جَمْعَ القرآن إلى زيد بن ثابت كاتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ وهو الذي شهد العرضة الأخيرة وكان من حفظة القرآن وأعلم الصحابة فقام بهذه المهمة خير قيام فهو أحد الذين جمعوا القرآن بجميع أحرفه المنزلة على عهد رسول الله ﷺ فقد روى البخاري عن أنس، قال: " مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَلَمْ يَجْمَعْ الْقُرْآنَ غَيْرُ أَرْبَعَةٍ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَبُو زَيْدٍ قَالَ وَنَحْنُ وَرِثْنَاهُ " وكلفه أبو بكر وعمر بجمع القرآن الجمعة الأولى في عهد أبي بكر ، ثم عيّنه عثمان رئيساً للجنة التي تولَّت جمع القرآن الجمعة الثانية في عهد عثمان في مصحف أبى بكر وفي مصحف عثمان ، والحقيقة لو لم يلهم الله تعالى هؤلاء الصحابة الكرام بجمع القرآن العظيم بكتابته في الصحف لذهب بموت حفاظه وانقراض الصحابة .

يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فاتبع قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٧-١٩] .

ولقد تكفَّل الله تعالى بحفظه بعكس الكتب السماوية الأخرى التي عهد إلى أتباعها حفظها فحرَّفوها .

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] .

وفي كل وقت تكفَّل تعالى بحفظ القرآن الكريم ، فلا يعتريه زيادة ولا نقصان ، ولا تحريف ولا تبديل ، بخلاف غيره من الكتب المتقدمة ، فإنه تعالى لم يتكفَّل

حفظها بل قال تعالى : إن الربانيين والأحبار استحفظوا ولذلك وقع فيها الاختلاف.(١)

﴿فاحكم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ الله وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الحق﴾ أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ بأن يلتزم في حكمه بين الناس الأحكام التي أنزلها سبحانه .

## قطعي الدلالة وظني الدلالة في القرآن الكريم

نصوص القرآن من جهة دلالتها على ما تضمنته من الأحكام فتنقسم إلى قسمين :

نص قطعي الدلالة على حكمه، ونص ظنِّي الدلالة على حكمه .

**فالنص القطعي الدلالة** هو ما دلَّ على معنى متعين فهمه منه ولا يحتمل تأويلاً ولا مجالاً لفهم معنى غيره منه، مثل قوله تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور:٥٦] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ﴾ [البقرة:١٨٣] فإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وطاعة الرسول أمور قطعية الدلالة .

وأما النص الظنِّي الدلالة : فهو ما دلَّ على معني ولكن يحتمل أن يؤول ويصرف عن هذا المعنى ويراد منه معني غيره وهذا النوع فيه رحمة وسعة للمسلمين إذ لو كان قطعي الدلالة لوجب تنفيذه بحرفه مثل قوله تعالى : ﴿وامسحوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ فالباءُ يمكن أن تكون مزيدة مما يعني وجوب مسح كل الرأس ، ويمكن أن تكون للتبعيض مما يعني وجوب مس جزء من الرأس وليس كلها ، وقيل معناها الإلصاق فكأنه قيل : وألصِقوا المسحَ برؤوسِكم ، وذلك لا يقتضي الاستيعابَ كما يقتضيه ما لو قيل : وامسحُوا رؤوسَكم . وكل ذلك سعة ورحمة .

---

(١) أبو حيان " تفسير البحر المحيط " ج ٧ ص ١٨٤

ومثل قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ﴾ [ المائدة: ٣] ، فلفظ الميتة عام والنص يحتمل الدلالة على تحريم كل ميتة ويحتمل أن يخصص التحريم بما عدا ميتة البحر، فالنص الذي فيه نص مشترك أو لفظ عام أو لفظ مطلق أو نحو هذا يكون ظنِّي الدلالة، لأنه يدل على معنى ويحتمل الدلالة على غيره . (١)

## نبي الرحمة والأسوة الحسنة

والمنهج الإلهي يحتاج إلى مُعَلِّم ومُرَبٍّ يتحمَّل ثقله ويبلغه للناس ويعلمه ويقوم على تطبيقه عمليّاً وفق مراد الله تعالى ويكون أسوة حسنة للناس ، ويا لها من مهام ثِقَال ثِقَال : حَمْل آخر رسالات السماء وأَتَمَّها وتبليغها ، وتزكية النفوس من الدنس وإخراج الناس من الظلمات إلى النور لذا اختار الله تعالى أشرف خلقه محمد ﷺ للقيام بهذه المهام الجُسام .

لقد اختار الله تعالى الرحمن الرحيم محمداً ﷺ رسول الرحمة ليبلغ رسالة الرحمة للعالمين .

﴿وَمَا أرسلناك إلاَّ رَحْمَةً للعالمين﴾ [ الأنبياء : ١٠٧ ]

ومنهج الدين يحتاج إلى من يطبقه عمليّاً وليس فقط يدعو إليه نظريّاً ، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يأمر أصحابه بأمر إلا كان أسبقهم إليه فكان المسلمون يأخذون عنه القدوة قولاً وعملاً .

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [ الأحزاب : ٢١] .

فيُقْتَدَى به في جميع أفعاله ويُتَعَزَّى به في جميع أحواله .

## حكم أفعال النبي ﷺ في أصول الفقه

يقول ابن حجر : " ما يفعله ﷺ إن كان بياناً لمجمل ( القرآن) فحكمه حكم ذلك المجمل وجوباً أو ندباً أو إباحة فان ظهر وجه القربة فللندب وما لم يظهر فيه

(١) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " مكتبة الدعوة الإسلامية ص ٣٥

وجه التقرب فللإباحة وإما تقريره على ما يفعل بحضرته فيدل على الجواز والمسألة مبسوطة في أصول الفقه ويتعلق بها تعارض قوله وفعله" [١]

وليس كل ما فعله النبي ﷺ فريضة وليس كل ما لم يفعله بدعة ضالة ويقسم علماء أصول الفقه أفعال النبي إلى ثلاثة أقسام :

أولها : أفعال النبي ﷺ التي تكون بياناً للشريعة وهي قسمان : أفعال هي بيان لمجملها ، وأفعال فعلها يدل على إباحتها وكلا القسمين يفيد العموم في أحكامه فلا يختص بالنبي ﷺ .

ثانياً : أفعاله ﷺ التي قام الدليل على أنها خاصة به ومن ذلك التزوج بأكثر من أربع زوجات .

ثالثاً : ما صدر عنه ﷺ بمقتضى طبيعته الإنسانية : من قيام وقعود ومشي ونوم وأكل وشرب فليس تشريعاً لأن هذا ليس مصدره رسالته ولكن مصدره إنسانيته . وما صدر عنه بمقتضى الخبرة الإنسانية والحذق والتجارب في الشئون الدنيوية من تجارة أو زراعة أو تنظيم للجيش أو تدبير حربي أو وصف دواء لمرض أو أمثال هذا فليس تشريعاً أيضاً لأنه ليس صادراً عن رسالته إنما صادر عن خبرته الدنيوية وتقديره الشخصي . [٢]

## الاجتهـاد في الإسلام

والأنبياء اجتهدوا واختلفت اجتهاداتهم ولم يُذّم أحدهم باجتهاد اجتهاده .

والنبي ﷺ اجتهد واستخدم القياس فقد " ثبت في صحيح السنة أن رسول الله ﷺ في كثير من الوقائع التي عرضت عليه ولم يوحَ إليه بحكمها استدل على حكمها بطريق القياس ،وفعل الرسول في هذا الأمر تشريع لأمته ، ولم يقم دليل على اختصاصه به فالقياس فيما لا نص فيه من سنن الرسول ،وللمسلمين به أسوة "[٣]

---

(٣) ابن حجر العسقلاني " فتح الباري شرح صحيح البخاري " ج ١٣ ص ٢٧٤

(٢) عبد الوهاب خلاف " علم أصول الفقه " ص ٤٢

(٣) نفسه ص ٥٧ .

فالاجتهاد فيما لا نص فيه سنة متبعة عن الأنبياء والمرسلين ولا ينكره إلا مُتَحَجِّر العقل جامد الفكر متنطع .

إن إغلاق باب الاجتهاد ومحاربة العقل والتفكير والتشنيع على العقلاء والمبدعين هو سبب انتكاس هذه الأمة وما عزَّت أمة وقوى سلطانها إلا بعدما تحرر أبناؤها من عبادة القدماء ، وتحررت عقولهم من عِقال التقليد ، ما عزَّت أمة ولا قوى سلطانها إلا بعد أن أعطت الفرصة لأبنائها المفكرين المبدعين بأن يقودوا ووقفت وراءهم تحثهم وتشجعهم ، هؤلاء المبدعون الذين أعملوا عقولهم واقتحموا غمار المشاكل وحاولوا إيجاد حلول جديدة واستفادوا ممن سبقهم في ميادين العلم والتكنولوجيا هؤلاء المفكرون الباحثون عن الجديد الراغبون في التجديد والتجريب.

## الخصائص العامة للشريعة الإسلامية

إن شريعتنا الإسلامية لها سمات عامة تجعلها صالحة لكل زمان ومكان ، صالحة لحل مشاكل الحياة العصيبة ، وتنظيم العلاقات بين البشر على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وبيئاتهم وعصورهم تنظيماً يوفر العدالة بينهم ، وهذا ما نفتقر إليه اليوم في عصرنا الحاضر ، يؤمن لهم مصالحهم على أحسن وجه، مما يجعل الحياة سعيدة مادام الجميع محتكمين إليها .

للشريعة الإسلامية خصائص عامة تميزها عن غيرها من الشرائع، لأنها شريعة الله الخاتمة لكل الشرائع والأديان الباقية ما دامت السموات والأرض ومن هذه الخصائص أهم خصائصها :

### أولاً : ربانية المصدر والمنهج

إن المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلى غاياته وأهدافه منهج رباني خالص؛ لأن مصدره وحي الله تعالى إلى خاتم رسله محمد ﷺ .

وقال تعالى: ﴿ياأيها الناس قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصدور وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [ يوسف: ٥٧] .

وربانية المصدر أكسبت الشريعة الإسلامية العصمة من التناقض والتطرف ، والبعد عن التحيز والهوى، وحررت الإنسان من عبوديته لبشر مثله أو مخلوق شبهه .

إن الأحكام الشرعية التي تحكم سلوك الناس وتعاملهم مربوطة بوازع الإيمان بالله واليوم الآخر فللشريعة الإسلامية كغيرها من الشرائع الوضعية لها جهاز بشري يتولى المراقبة والمعاقبة على المخالفة لأحكامها، وتمتاز الشريعة الإسلامية برقابة عليا وهي مراقبة العلي الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

**ثانياً : إنسانية**

الله تعالى غني عن العالمين لا تنفعه طاعة الطائعين كما لا تضره معصية العاصين .

﴿وَقَالَ موسى إِن تكفروا أَنتُمْ وَمَن فِي الأرض جَمِيعاً فَإِنَّ الله لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨]

وعقائد الإسلام وأحكامه وأهدافه إنما جاءت لإسعاد الإنسان في الدنيا والعناية به وبحقوقه، بطرق مباشرة تظهر لعامة الناس، وغير مباشرة يدركها العارفون منهم.

فشريعة الإسلام : العبادات ، والمعاملات ، والأخلاق تعود كلها بالنفع على الإنسان في الدنيا والآخرة فلا يضل الإنسان بها ولا يشقي بل يسعد في الدارين .

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣] .

**ثالثاً : اليسر ورفع الحرج**

دين الله يسر لا مشقة فيه، فلا يطلب الله مِن عباده ما لا يطيقونه .

﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾ [ البقرة : ٢٨٦] .

وكقوله تعالى ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام : ١٥٢]

فالله تعالى لم يكلفنا حسب طاقتنا بل خفف عنا فكلفنا حسب وسعنا والوسع ما تسعه قدرة الإنسان أو ما يسهل عليه من المقدور وهو ما دون مدى طاقته أي سنته تعالى أنه لا يكلف نفساً من النفوس إلا ما تطيق وإلا ما هو دون ذلك كما في سائر ما كلفنا به من الصلاة والصيام مثلاً فإنه كلفنا خمس صلوات والطاقة تسع ستاً وزيادة . وكلفنا صوم رمضان والطاقة تسع شعبان معه وفعل ذلك فضلاً منه ورحمة بالعباد أو كرامة ومِنَّه على هذه الأمة خاصة . (١)

وحتى ما فرضه الله تعالى على الإنسان ، وهو سهل ميسور ، إن عجز الإنسان عن فعله أو أوقعه فعله له في حرج ، لعذر شرعي مؤقت أو دائم ، أعفاه الله منه وتجاوز عن تقصيره فيه .

يقول تعالى : ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكمْ فِى الدين مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨ ] .

أي : ومن مظاهر رحمته بكم – أيها المؤمنون – أنه سبحانه لم يشرع في هذا الدين الذي تدينون به ما فيه مشقة بكم ، أو ضيق عليكم : وإنما جعل أمر هذا الدين، مبنى على اليسر والتخفيف ورفع الحرج ، ومن قواعده التي تدل على ذلك: أن الضرر يزال . وأن المشقة تجلب التيسير : وأن اليقين لا يرفع بالشك ، وأن الأمور تتبع مقاصدها ، وأن التوبة الصادقة النصوح تجب ما قبلها من ذنوب .

ومن الآيات التي تدل على أن هذا الدين مبنى على التيسير ورفع الحرج قوله تعالى : ﴿لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ وقوله سبحانه : ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ اليسر وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العسر﴾ وفى الحديث الشريف : " بُعِثْتُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ " .

قال بعض العلماء : وأنت خبير بأن هناك فرقاً كبيراً ، بين المشقة في الأحكام الشرعية ، وبين الحرج والعسر فيها ، فإن الأولى حاصلة وقلما يخلو منها تكليف شرعي ، إذ التكليف هو التزام ما فيه كلفة ومشقة ، أما المشقة الزائدة عن الحد التي تصل إلى حد الحرج ، فهي المرفوعة عن المكلفين .

---

(١) تفسير الألوسي " روح المعاني " ج ٢ ص ٤٠٤

فقد فرض الله الصلاة على المكلف ، وأوجب عليه أداءها ، وهذا شيء لا حرج فيه . ثم هو إذا لم يستطع الصلاة من قيام ، فله أن يؤديها وهو قاعد أو بالإيماء وهكذا جميع التكاليف الشرعية .

والخلاصة : أن هذا الدين الذي جاءنا به محمد ﷺ من عند ربه عزَّ وجل مبنى على التخفيف والتيسير ، لا على الضيق والحرج ، والذين يجدون فيه ضيقاً وحرجاً، هم الناكبون عن هديه ، الخارجون على تعاليمه .

**رابعاً : جمع الشريعة بين الثبات والمرونة في أحكامها**

الأحكام الشرعية نوعان : أحكام ثابتة ، وأحاكم متغيرة . الأحكام الثابتة هي : المعلومة من الدين بالضرورة التي أجمع عليها المسلمون قديماً وحديثاً ، وهي قطعية الثبوت قطعية الدلالة ، أما الأحكام المتغيرة فهي : الأحكام قطعية الثبوت ظنية الدلالة أو ظنية الثبوت والدلالة فهي مجال الاجتهاد من أهل للاجتهاد لذا تتغير بحسب اقتضاء المصلحة زماناً ومكاناً وحالاً .

وبهذه الخاصية تستوعب الشريعة الإسلامية كل ما جدَّ من وقائع وما تبدَّل من عرف وعادة صالحين فلا يستطيع أحد أن يصفها بالجمود .

**خامساً : الشمول**

لقد كان لكل نبي شرعة ومنهاج وشاءت حكمة الله تعالى أن تكون شريعة الإسلام التي جاء بها خير الأنام لكل البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم وأزمنتهم وأمكنتهم ولغاتهم ؛ فقد وحدت وسائل الاتصال العالم كله وجعلته قرية صغيرة يجمع أهلها خصائص واحدة ، لذلك جعل الله الشريعة الخاتمة ليست قاصرة على قوم بعينهم إنما شاملة لجميع البشر .

ومن مظاهر الشمول التي تميز بها دين الإسلام:

أ- أنه شامل لكل الناس : العربي والأعجمي ، والذكر والأنثى ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والقوي والضعيف ...

يقول تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

[الأعراف: ١٥٨]

ويقول عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [ سبأ: ٢٨] .

ب- شمول شريعة الإسلام لجميع مراحل حياة الإنسان وجميع نواحيها .

فالإسلام وضع نظاماً لحياة الإنسان وهو في بطن أمه حملاً، ثم عندما يكون طفلاً، فبين الذي له من حقوق الحضانة والرضاعة والرعاية، ثم لما يبلغ ويتزوج، ثم عندما يكون أباً أو أماً، ثم لما يكون شيخاً كبيراً، فشريعة الإسلام ترعى الإنسان وتدير شئونه من قبل ولادته حتى وفاته وبعد وفاته وتنظم حياته كلها في نفسه وعلاقاته مع غيره، في بيته وفي عمله وفي كل أحواله .

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [ الأنعام :١٦٢] .

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة في غير ما يرضي الله . فينبغي أن تكون جميع مراحل حياتك لله لا لشهوتك ، ومماتك لله لا لورثتك .

ج- تشمل كل العصور والأزمنة من يوم مبعثه عليه الصلاة والسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فهي خالدة لا يلحقها تبديل ولا تغيير قال تعالى :﴿لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [ يونس :٦٤] وقال أيضاً : ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [ الرعد: ٤١] .

فهي إذا تتماشى مع الواقع البشري المتغير عبر الأزمنة والأمكنة ومسايرة لواقعهم لجمعها بين ثبات الحكم الشرعي وتغير فتوى العلماء المجتهدين حسب الزمان والمكان والحال .

**سادساً : الوسطية**

دين الإسلام دين وسط لا غلوٌّ فيه ولا تقصير، ولا إفراط فيه ولا تفريط ، والإسلام وسط في الاعتقاد والتصور ، ووسط في التعبد والتنسُّك ، ووسط في الأخلاق والآداب ، ووسط في التشريع والنظام .

فالإسلام وسط في الاعتقاد والتصور بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط ، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبدة الأوثان والأحجار .

فالإسلام يدعو للإيمان بإله واحد لا شريك له لم يلد ولم يولد ، ولا مماثل ولا مشابه فليس كمثله شيء سبحانه وتعالى .

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

[ سورة الإخلاص ]

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل : ٦٤ ] .

والإسلام وسط بين العبادات والشعائر بين الأديان والنحل التي ألغت جانب العبادات الربانية من فلسفتها وواجباتها كالبوذية ، وبين الأديان التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة والانقطاع عن الحياة والإنتاج كالرهبانية المسيحية .

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد : ٢٧] .

والإسلام وسط في فهم طبيعة الإنسان فالإنسان في نظر الإسلام ليس روحاً فقط كما فهم غلاة المثالية ودعاة الرهبانية ، وليس عقلاً فقط كما فهم الفلاسفة الماديون الملاحدة ، وليس جسداً فقط كما فهم الإباحيون عبيد غرائز الجسد .

ولكن الإنسان روح وجسد وعقل وقلب .

﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [ الروم : ٣٠ ] .

" كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ "

[ متفق عليه ]

والفطرة هي التوازن بين عناصر الإنسان المختلفة في أمثل صورة لها توازن بين الجسد والروح أو بين المادية والرهبنة ، وتوازن بين العقل والقلب أو بين العلمانية والصوفية .

والإسلام وسط في الشريعة بين اليهودية التي أسرفت في التحريم مما حرموه على أنفسهم أو حرمهم الله عليهم جزاء ظلمهم ، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة حتى أحلت ما نصت التوراة على تحريمه مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة .

والإسلام قد أحلَّ وحرَّم ، ولكنه لم يجعل التحليل والتحريم من حق بشر بل من حق الله وحده ، ولم يحرِّم إلا الخبيث الضار ، كما لم يحلَّ إلا الطيب النافع ولهذا كان من أوصاف الرسول عند أهل الكتاب أنه :

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

والتشريع الإسلامي وسط في شئون الأسرة بين ، كما هو وسط في شئونه كلها ، وسط بين الذين شرَّعوا تعدد الزوجات بغير عدد ولا قيد وبين الذين رفضوه وأنكروه.

وهو وسط في الطلاق بين الذين حرَّموا الطلاق لأي سبب ولو استحالت الحياة الزوجية إلى جحيم لا يطاق كالكاثوليكية ، وبين الذين أرخوا العنان في أمر الطلاق فلم يقيدوه بقيد أو شرط .

والإسلام وسط في تشريعه ونظامه الاجتماعي بين " الليبراليين " الذين يدللون الفرد على حساب المجتمع بكثرة ما يعطى له من حقوق يطالب بها ، وقلة ما

يفرض عليه من واجبات يسأل عنه ، وبين الماركسيين الذين يضخمون دور المجتمع بالضغط على الفرد والتقليل من حقوقه والحجر على حريته .

لقد أعطى الإسلام للفرد حقوق وحريات كثيرة فحفظ للفرد حق الحياة ، وحق الكرامة ، وحق التملك ، وحق الاستقلال الشخصي ، وحق النقد والمعارضة ، وحرية الرأي والفكر .. ومع هذه الحقوق والحريات التي منحها الإسلام للفرد فقد فرض عليه للمجتمع واجبات تكافئها ، وقيد هذه الحقوق والحريات الفردية بأن تكون في حدود مصلحة الجماعة وألا يكون فيها ضرر للغير ، وليس للفرد أن يستخدم حقه فيما يؤذي الجماعة ويضرها إذ " لا ضَرَرَ وَلا ضِرَارَ " في الإسلام أي لا يضر الإنسان نفسه ولا يضر غيره .

" إِنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَلِضَيْفِكَ عَلَيْكَ حَقًّا وَإِنَّ لأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِى حَقٍّ حَقَّهُ " .

إن من أهم صفاتها ومميزاتها أنها شريعة عادلة لا تميل للحاكم على حساب المحكوم، ولا تميز بين قوي أو ضعيف، بل وتحرم الظلم أيضًا وتحاسب عليه في الدنيا والآخرة، بخلاف القوانين الوضعية، والتي لا بد وأن يكون فيها ظلم وجور وتمييز لمجموعة على حساب الأخرى.

**سابعاً : الواقعيَّة**

المراد بالواقعية في شريعة الإسلام: أنها تراعي مكونات الإنسان التي فطره الله تعالى بها : الروح والقلب والعقل والجسد والنفس . كما تراعي طبيعة الكون والبيئة التي يعيش الإنسان فيها فشرائع الإسلام ملائمة لفطرة الإنسان وواقعه وحياته، كما هي مناسبة لطبيعة الكون الذي يعيش فيه ويؤثر فيه ويتأثر به ؛ ولهذا فهي الشريعة القادرة على إسعاد البشرية كلها وتعمير الكون .

فالله تعالى كما خلق الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً فإن دينه الذي ارتضاه للناس متوازن كذلك ويعمل على حفظ توازن الإنسان والكون .

لقد أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل بالكتب المقدسة تلك الكتب المتوازنة مع كيان الإنسان كله والتي تجعل نظرته لحقوق الله وحقوق خلقه متوازنة وبهذا يقام ميزان العدل .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [ الحديد : ٢٥ ]

وتدبر معي هذه الآيات العجيبة التي جمع الله تعالى فيها بين تعليم القرآن ، وخلق الإنسان ، وخلق الكون، وأمره تعالى الإنسان بالتزام الميزان في كل ذلك وتحذيره تعالى من عدم مراعاة الميزان في فهم القرآن والإنسان والكون .

يقول تعالى : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [ الرحمن : ١- ٩ ] .

فشريعة الله تعالى التي أنزلها في كتابه العزيز ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ هي الميزان الإلهي لفهم الإنسان والكون ﴿ووضع الميزان﴾ وحذر الله تعالى من عدم تطبيق شرعه فيختل توازن الإنسان والكون ﴿ألا تطغوا في الميزان﴾ وأمر الله تعالى الإنسان بإقامة شرعة وتطبيقه بالعدل بين الإنسان وخالقه ، وبين الإنسان وأخيه الإنسان ، وبين الإنسان وعناصر الكون ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ ثم يعود الله تعالى فيحذر الإنسان من الإخلال بشرعه أو استبدال غيره به مما يترتب عليه سخط الله تعالى ، وفساد الكون ، وتعاسة الإنسان ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ .

**ثامناً : الوضوح والسهولة**

ومن وضوح هذه الشريعة: أن جميع عباداتها سواء البدنية أم المالية كلها معلومة وواضحة؛ فالصلوات خمس في اليوم والليلة والصيام هو شهر واحد في رمضان، والزكاة معلومة مقاديرها وأنصبتها، والحج معلومة أركانه وشروطه وواجباته، يعرفها كل من تعلمها ولا تعجز العقول عن فهمها.

وأخيراً فإن من وضوح هذا الدين: أن قراءة دستور هذه الأمة ومصدر تشريعها وهو القرآن الكريم وحفظه وفهمه ميسر سهل لكل راغب، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [ القمر: ٤٠ ] .

وسنة النبي ﷺ محفوظة بالإسناد، وسيرته مضبوطة مُحرَّرة. ومن هذه المصادر يؤخذ الإسلام، وإليها يرجع عند الاختلاف. وهذا كله مما لم يتوافر لدين من الأديان.

وبهذه الخصائص يتأكد لدى الجميع صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان، وخلوها من النقائص والعيوب الموجودة في الشرائع الوضعية، وبالتالي أحقيتها في حكم البشر وسيادتهم .

***